حين تأتي الدكتاتورية
كيف تعرف؟

يتفق معي أغلب الناس، كما أمل، أن ضحايا الدكتاتورية التوتاليتارية يسعون لامتلاك حق أخلاقي، إن لم ينالوا حقاً قانونياً، يوجب بالتأكيد استخدام أية وسيلة لطرد تلك الدكتاتورية. وليس غير الذين يفهمون الدين على نحو خاطئ، ممن يؤمنون أن ضحايا القهر ليس لهم الحق في استخدام أية وسيلة لتحطيمها. ثمة توصيات أو وصايا خاطئة تحت المواطن على إطاعة الحاكم مهما كان ظالماً وشريراً والإذعان للجرائم التي يقترفها، كما جاء في التفسير الخاطئ والمبتور للآية القرآنية، "وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم...".

وأحد الأسباب التي تبرر لضحايا الدكتاتورية أن يبذلوا ما استطاعوا في سبيل تحرير أنفسهم هو أن الدكتاتورية من تعريفها تلغي أسس المجتمع الإنساني العادية. ولذلك يطرح علينا بالضرورة السؤال، كيف نعرف حين يتحول نظام ما إلى دكتاتورية توتاليتارية؟ ما العلامات؟ متى أصبح نظام هتلر توتاليتاريا، على سبيل المثال؟

(هذا سهل. فرض هتلر الدكتاتورية التوتاليتارية على ألمانيا في ... عندما كان...).

لاحظ حتى في حالة هتلر لم يكن الأمر سهل الإجابة. لنفترض أننا نعيش في ألمانيا وفي يوم (1933/1/30). وهو يوم تولي هتلر السلطة. هل نحن نعيش في ظل الدكتاتورية؟ كلا، ليس بعد. فنحن نتذكر أن هتلر تسلم السلطة على نحو قانوني. إذ عينه الرئيس بول فون هندنبرغ مستشاراً. في يوم (1933/1/30) لم يكن هتلر قد فعل شيئاً دكتاتورياً. لذلك، فنحن لو بدأنا الثورة عليه في ذلك اليوم، سنكون مخطئين. كان هتلر سيقول أننا نخرج عن القانون وكان سيكون على حق. من المؤكد أننا نعرف في زمن بين ذلك اليوم واليوم الذي بدأ فيه الحرب ضد الدكتاتور الاشتراكي التوتاليتاري جوزيف ستالين في (1939/9/1)، فرض الدكتاتورية على ألمانيا.

متى؟ ما الذي فعله ليقوم بذلك التغيير المصيري؟ **ما نتحدث عنه اليوم ينطبق على كل الحكومات التوتاليتارية، فنحن نتحدث عن هتلر، لأن نماذج الحداثة المجنونة المعروفة قد أبقت جاهدة على حياة "التهديد النازي" من أجل أغراضها التوتاليتارية طوال هذه السنين.**

في بواكير القرن العشرين، أضاف أحد الصحفيين كلمة "توتاليتاري" إلى الدكتاتور ليصف تطوراً جديداً في الدولة. قبل ذلك الوقت، كان دكتاتورك النموذجي مقتنعاً في أن يدير النظام بانتخابات مزيفة أو حتى بلا انتخابات. ونطلق اليوم على مثل هذا النظام لقب "السلطوي". لو أنك تركت الدكتاتور يدير الحكومة، وينزلق إلى ابتزاز الأموال ويعيش في القصر ويفتح حسابات مالية في سويسرا، فلسوف يتركك وحده. انظر إلى جمهورية الموز الجديدة النموذجية وشيكاغو آل كابوني.

إن الدكتاتور التوتاليتاري ليس من هذا النوع، إنه شيء مختلف تماماً. فمن خلال ما يستوحيه من الحمى المليرالية ومن خلال التطور التقني الذي يجعل ذلك ممكناً، يريد السلطة المطلقة، السلطة على كل مظهر من مظاهر الحياة من الطعام الذي تأكله إلى المكان الذي تعمل فيه وما تقرأه وتفكر فيه وغير ذلك. من هنا يأتي معنى مصطلح "الدكتاتورية التوتاليتارية".

سعى هتلر، النازي السطاح، إلى أن يجر إليه السلطة المطلقة، لكن الناس لم يمنحوه إياها، فلجأ إلى حرق "الرايختساغ" البنائية التي تجتمع فيها الهيئة التشريعية في البلاد، واتهم الشيوعيين بالجريمة، وفي هذه الحالة الطارئة استطاع أن يستحصل على السلطة المطلقة، وهو ما كان يسعى إليه بكل جهده. وظل حتى ذلك يتحرك وفق القانون حتى وضع رجاله بدل الحكومات التاريخية للولايات الألمانية.

لذلك ليس من السهل أن تقرر حين تنظر إلى دكتاتورية توتاليتارية، خصوصاً حين لا يكون لديك ميزة النظرة إلى الخلفيات. ربما بعد سنوات يستطيع المؤرخون الذين لديهم الخبرة في أن يتبينوا في أمور التاريخ فيحددوا متى حدث ذلك. ومن المؤكد أنهم حتى بعد ذلك لا يكونون في يقين تام. وقد يرى الإنسان أن كل شيء فعله هتلر كان منذ البداية وحتى النهاية قانونياً في الأقل لأنه كان هو الحكومة وهو الذي يضع القوانين. اسأل المؤرخين عن الوقت الذي أصبحت فيه النازية الألمانية دكتاتورية توتاليتارية ومن المحتمل أنك ستتلقى الخليل من الأجوبة. وهذا ما ينطبق على كل دكتاتورية توتاليتارية.

لا أستطيع التفكير بحالة واحدة يخرج فيها ابن عرس من هؤلاء ويقول للناس عما كان يفعله. لو كان هتلر قد أعلن قبل (1933/1/30) (اسمي أدولف هتلر. وأنا منذ طفولتي أعاني من الاضطراب الإجرامي، وقد اشتغلت في الدعارة والشذوذ الجنسي في فيينا وميونخ، ونتيجة لذلك أعاني من جروح جعلت من الصعب علي الجلوس دون أن ألقي خطابات طويلة. وأنا الآن أمتلك السلطة المطلقة كي أفرض الدكتاتورية والقتل) لو كان قد فعل ذلك منذ البداية لكان قد وفر علينا الكثير.

كان قد قدم لنا عوناً كبيراً، ولكنه لم يفعل ذلك، ولن يفعل. بل دائماً، وفي كل مكان، يقول الدكتاتور الملهم أنه يعمل من أجل "صالح الشعب". في روما القديمة، كان الدكتاتور يمنح الشعب صدقات، وعرفت فيما بعد، على أنها "خبز ومدرجات". كان هتلر يحب ركوب القوارب وأراد أن يتمتع الشعب الألماني بأكمله بهذه الرياضة. ويمكنك أن ترى جرثومة ذلك التكتيك الكلاسيكي حتى لدى أفراد العصابات في العشرينيات من القرن الماضي، إذ كانوا يبيعون بوليصة "التأمين على الحياة" لأصحاب المحال التجارية. ومن يدري لو أن آل كابوني قد استخدم اثنين من أساتذة هارفرد بدل الكثير من غلاظ الرؤوس، لربما أصبح رئيساً للجمهورية.

إذن كيف ستدرك ظهور التوتاليتارية؟ من المؤكد أن أولى العلامات هي تمركز السلطة، وخصوصاً الشرطة في الحكومة. وربما يكون **ذلك مؤشراً رئيساً لسبب واضح هو أن تمركز** السلطة حالة توتاليتارية. ومن هنا تأتي ضرورة عزل السلطات. إذ عندما يستفرد إنسان بالسلطة تكون الفرصة سانحة لإساءة استخدامها. لذلك، في الدستور، لابد أن توضع السلطات في أيد متنافسة، ومثل كل شيء لابد من الفصل بين السلطات.

عليك أن تنظر فيما حولك. هل ترى تمركزاً للسلطة، خصوصاً للشرطة بكل أشكالها؟ هل ثمة إنسان واحد يدمج المؤسسات الرئيسة المتنافسة؟ هل يلغي هذا الشخص الخط الفاصل بين السلطات؟ إن يكن الأمر كذلك، فأنت تنظر إلى العلامة الرئيسة التي تقود إلى الدكتاتورية.

وثمة مؤشر آخر هو أن الدولة في حالة طوارئ. يحب الدكتاتوريون حالات الطوارئ، كالحروب لأن حالات الطوارئ هذه تقضي على التفكير والتداول. تثير حالات الطوارئ الهستيريا التي يستخدمها الدكتاتوريون، وهم مغتبطون، عذراً لإحكام التسلط. في مسرحية لشكسبير ينصح هنري الرابع ابنه "ليكن ديدنك إشغال العقول النيرة بالحروب الخارجية". انظر فيما حولك هل ترى أي أثر لحكومة في حالة طوارئ؟ إن يكن الأمر كذلك فأنت تنظر في عيون الدكتاتورية.

انظر فيما حولك، هل أضحى الناس هنا يخشون الإفصاح عما في أذهانهم يوماً بعد يوم، كما حدث في عهد النازية الألمانية، وكما حدث في عهد الصدامية البعثية؟ هل ثمة أشياء ممنوعة بالتحديد؟ هل ثمة من يقول لك بين منعطف وآخر: "أرني بطاقتك الشخصية؟".

لابد للشعوب أن تبقى قوية مثلما هي واعية، إذ عليها حين تكتشف بوعيها علامات التوجه نحو الدكتاتورية أن تسعى بكل قوتها إلى إزاحتها عن السلطة ولا تجعلها تنال الفرصة في أن تنفرد بالسلطة أكثر فأكثر وتبطش بالناس أكثر فأكثر.

اعداد وترجمة
سهيل نجم

القيم الأخلاقية
كثير من الإحباط قليل من الأمل

محمد حبيب

"يرى تشومسكي، "إن تحديد المصدر الأساسي للقيم الأخلاقية يقوم على فهم متطرف. ولذلك لا يمكن الركون إلى جدية ما يقال عن ذلك. لكن، بالنظر إلى حيثيات الحكم الأخلاقي، لا أفهم كيف نفشل في إثبات أن القيم الأخلاقية متجذرة أساساً في طبيعتنا، ويعتقد أن ذلك يجب أن يكون حقيقة لا ريب فيها".

فهو يرى أن طريقة نظرتنا إلى الأشياء وإطلاق الأحكام الأخلاقية عليها وتقييمها، تنطوي على عامل نفعي في غاية الأهمية. لكن كلا منا، بمفرده، قادر على إطلاق، ويطلق فعلاً، أحكاماً وتقييمات أخلاقية في ظل ظروف جديدة كلياً تقوم بذلك باستمرار، وقد لا نعي حقيقة أننا نقيم كل تلك الظروف الجديدة التي نواجهها، لكننا نقوم بذلك ضمنياً، في الأقل، وتغدو نتائج تلك التقييمات الأخلاقية أساس خياراتنا العملية، أو دافعنا إلى القيام بهذا الفعل لا غيره. بناء عليه وباستمرار، نطلق على القضايا والظروف الجديدة، كل أنواع الأحكام، بما فيها الأحكام الأخلاقية، الجمالية، وغيرها. ويجري ذلك كله إما عشوائياً، مثل حاوٍ يخرج من قبعته مفاجآت وهي غير حقيقية، إما استنباطية أو تتعلق بقوة الملاحظة- لو كأننا كنا نقوم بذلك على أساس منظومة أخلاقية رسخناها في عقولنا بطريقة ما، تمدنا بأجوبة، أو بأجوبة جزئية، في الأقل، تناسب الحالات الجديدة بكل أطيافها.

بالطبع، لا أحد يعرف الماهية الحقيقية لتلك المنظومة. لا نفهمها البتة لكنها لا تبدو على درجة من الغنى والتعقيد الكافيين لتطبيقها على عدد لا محدود من الحالات الجديدة.

يعتقد تشومسكي، أننا، إن كنا عاجزين عن وضع خارطة تفصيلية لتلك المنظومة، فبإمكاننا تشبيهها بما نعرفه عن اللغة وهو كثير- إذ أننا نملك أطراً أساسية، مبادئ، قاعدية ثابتة،" وراسخة في طبيعتنا البيولوجية بطريقة أو بأخرى تتولى هذه الأطر أمر كل اللغات وتسمح فقط بدرجة محددة من التعديل، وهذا بدوره ينتج عن تجربتنا المبكرة. بعدئذ وحالما ترسخ خيارات التغيير المقيدة تلك، يمتلك الأطفال منظومة لغوية كاملة تسمح لهم بقول وفهم أشياء جديدة، وتفسير تعابير جديدة لم يسمع بها أحد من قبل- وأشياء أخرى من هذا القبيل.

هكذا تبدو منظومة حكمنا الأخلاقية، من الناحية النوعية، لذلك يمكن اعتبارها شبيهة بقاعدة ما، لكن يبقى عليك أن تجد الجواب، ولا يكفي أن تخمنه تخميناً.

يوافق تشومسكي على أن المبادئ الأساسية لا يمكن أن تكون بسيطة، مثل: "يجب ألا تقتل"، لأننا نحكم في أمور أكثر تعقيداً من ذلك. حقيقة الأمر، أننا لا نعرف ما هي فعلاً المبادئ الأساسية للحكم الأخلاقي، لكننا نملك كل المبررات للاعتقاد بوجودها. هنا لأننا قادرون، فعلاً، على إصدار أحكام أخلاقية متسقة نسبياً، يمكن أن يفهمها الآخرون، ويقدرونها (وإذا خالفونا الرأي فيها أحياناً، يمكن أن نخوض معهم نقاشاً أخلاقياً). ويمكن أن نقوم بذلك كله في ظروف جديدة كلياً، نواجه فيها مشاكل جديدة، وهكذا حواليك، ما لم تكن ملائكة، فإن تلك البنى تجد طريقها إلينا، مثلما تجده الأشياء الأخرى أي إنها جزء من إطار جيني مسبق التحديد، ربما تتعدل هامشياً خلال مسار تجاربنا الباكرة.

قد تبدو منظومتنا الأخلاقية على هذه الشاكلة. لكن كم من التغييرات يمكن أن تشهدها منظومات كهذه؟ لا يمكن أن نعرف ذلك، دون فهم. أقصد في حالة اللغة، نعرف أن التغييرات ليست كثيرة، أما في حالة القيم الأخلاقية، فأعتقد أننا بوسعنا أن نخمن أن التغييرات لا يمكن أن تكون كثيرة أيضاً والسبب بسيط جداً. إذ تبدو منظومتنا الأخلاقية معقدة ومسبقة التحديد، وهناك عاملان فقط يتدخلان في مسار تقريرها: طبيعتنا البيولوجية الثابتة وتجربتنا الفردية. نعرف أن التجربة تفقر بإفراط، ولا تمارس توجيهاً كبيراً هذا منطق يشبه إلى حد كبير سؤال أحد ما، "لماذا يبلغ الأطفال في سن محددة؟" لا أحد يعرف جواب هذا السؤال: برغم أن الأمر معروف. من المحتمل أن يتخلله عاملان. الأول، يتعلق بتجارب الأطفال قبل سن البلوغ، تجارب يبدو أنها تفحمهم في سن البلوغ، مثل بعض المؤثرات البيئية، تأثير الاكتراب، أو كأن يقول لك شخص ما أنها ستكون فكرة جيدة أو ما شابه. والثاني هو أننا مهيئين ببنيتنا الوراثية لندخل طور البلوغ في ظروف معينة وعند مستوى من النضج، حيث تتحكم الهرمونات بفزيولوجيتنا، ندخل طور البلوغ: إنه بلوغ مشروط.

عندما نفتقر إلى المعرفة الصحيحة، يفترض كل من الاحتمال الثاني. كأن يأتي شخص ويقول لك إن ضغط الاكتراب هو الذي يسبب البلوغ هنا لأنه يرى الناس يعتقدون ذلك، ويريد أن يحذو حذوهم دون معرفة أي شيء لا يسعك سوى الضحك. ولهذا الضحك سبب غاية في البساطة: وهو أن البيئة وحدها ليست كافية أو على درجة من الغنى بما يكفي لتقرر وحدها حدوث هذا التغير النوعي. ويصح هذا المنطق أيضاً على كل شيء ينمو ويتطور، وهذا ما ينفع الناس إلى الافتراض، دون معرفة، أو مضغة تتطور فتنتج دجاجة لا كائناً بشرياً بسبب طبيعتنا البيولوجية، لا بسبب التغذية التي تلقتها، وذلك لأن التغذية لا تنطوي على شيفرات وراثية كافية لتسبب تلك التغيرات النوعية الخاصة. يبدو أن منظومات قيمنا وأحكامنا الأخلاقية من الطبيعة ذاتها، أيضاً.

في الواقع، إن إمكانية انخراطنا في نقاش أخلاقي، هي مساهمة في الوصول إلى هذه النتيجة. لنأخذ، مثلاً قضية العبودية التي انقسم الناس حولها. لم تكن العبودية مجرد سجال فكري، فمن الواضح أنها شهدت نضالاً شرساً. لكن بقدر ما كان هناك سجال فكري، بقدر ما كان للنضال أرضية أخلاقية معينة مشتركة معه. وقد كانت بعض محاججات مالكي العبيد مقنعة، وليس من السهل الإجابة عليها وانطوى بعضها على مضامين كثيرة أخذها العمال الأميركيون على محمل الجد في أواخر القرن التاسع عشر.

على سبيل المثال، لقد جادل مالكو العبيد، "إنك تعتني بالعبد عندما تمتلكه، أكثر من اعتنائك به عندما تستأجره من مالكه." تماماً كما تعتني بسيارتك الخاصة أكثر من اعتنائك بسيارة تستأجرها. وتعتني بعاملك الذي تملكه أكثر من اعتنائك بالعامل الذي تستأجره. لذلك، فإن منافع العبودية و "السوق الحرة" غير مدركة أخلاقياً. ويقول مالكو العبيد" إننا أكثر نفعاً وخيراً منكم ومن نظام أجوركم الرأسمالي العبودي" وإذا نظرتم، إلى الوراء، إلى الأدب الذي أنتجه العمال الذين أسسوا النقل، منظمة فرسان العمل وغيرها من منظمات الطبقة العاملة في أواخر القرن التاسع عشر، ستجدون أن وضعهم يلفه التوتر والقلق أيضاً، ويقول لكم: "إننا نناضل لإنهاء العبودية، لا لنفرضها". (أي أن نظام العمل الصناعي المأجور أصبح هو السائد بعد الحرب الأهلية). وهكذا تبدو المسألة الأساسية من كل نواحي السجال على النحو التالي، يفهم الناس أن عليهم الاحتكام إلى المبادئ الأخلاقية الأساسية ذاتها، حتى لو كان كل ما يفعلونه فاسداً.

نادراً ما تجد رقيباً، حارساً أو جلاداً يقول، "أنا أفعل ذلك، لأني أريد أن أكون ابن عاهرة". فكلنا نفعل أشياء سيئة في حياتنا، وإذا فكرنا في الأمر، لا نقول أبداً، أنا أفعل ذلك لأني أحب أن أفعله". إذ يعيد الناس تفسير الأشياء كما تجعلهم مناسبين لإطار قيم أخلاقية يتشاركونها جميعاً.

لا أريد أن أقول أن القيم الأخلاقية بذة نظامية. إن أنت نظرت إلى الثقافات المختلفة، سترى بعض الفروقات. لكن عندما تنظر إلى لغات مختلفة يتراءى لك، أيضاً أن بينها فروقات جوهرية. تعلم أنها يجب ألا تكون موجودة، لكنها إن وجدت فمن المستحيل عليك أن تتعلم أياً من هذه اللغات. إذن، لابد أن هذه الفروقات سطحية، والمهمة الرئيسة هي أن تتأكد ما هو الصحيح من بينها في ضوء الأساس المنطقي لتلك الحالة. أعتقد أن الأمر نفسه يصح، أيضاً، في حالة الحكم الأخلاقي. في ضوء ذلك، وبالعودة إلى قضيتنا الرئيسة، أرى أنه من المبرر لنا، تماماً، أن نرتاب في تجذر القيم الأخلاقية في طبيعتنا.

وأمام الحاح المحاورين على تشومسكي لتقديم تفسير لهذا الفساد والترابية الاجتماعية المشحونة بالعدوانية والتأهب الدائم للحرب، يتساءل لماذا نفعل، أو نغمض أعيننا عن وجود، في الوقت نفسه، كل هذا التعاطف، العناية، الحب والمؤازرة؟ لماذا لا نريد أن نرى نصف الكأس الملأى؟

ويعتقد تشومسكي أن لا وجود لكثير من الأسئلة مثل، "لماذا يوجد الكثير من هذا، وذاك؟" فما هو موجود موجود. لكن لا شك في أن ما هو موجود مشروط بالفرص السانحة والخيارات المتاحة للناس أو المفروضة عليهم، في شروط اجتماعية، ثقافية، اقتصادية، وحتى جسدية خاصة، فالمسألة هنا هي أن تحاول الحصول على حالة يتضاءل فيها المجتمع وكل مؤسساته وإجراءاته لمضاعفة خيارات الناس في الحصول على البدائل الأفضل. واعتقد أن التاريخ المعاصر لم يعرف فرصة لتنظيم ذلك، أفضل من المتاحة الآن فعلاً.

"أعني أن هناك كما هائلاً من الإحباط في طول هذا البلد وعرضه- وبالتالي، في العالم أجمع: وهناك دراسات وطنية متضاربة، في هذا الخصوص، ويعتبر مستوى التشاؤم في كل البلدان الصناعة غير عادي. ففي الولايات المتحدة، مثلاً، يعتقد (4/3) من المواطنين أن المستقبل، موضوعياً، سيكون أسوأ من الماضي- أي أن أطفالهم لن يعيشوا كما يعيشون هم. ويعتقد نصف الشعب الأمريكي أنه يجب حل كلا الحزبين (الجمهوري والديمقراطي)، لأنهما عديما الفائدة. كما أن نفور الشعب الأمريكي من المؤسسات في أعلى مستوياته دائماً، وقد تزايد باطراد في الأعوام الماضية. هذه شروط يجب أن يكون فيها التنظيم لتغيير اجتماعي ممكن جداً- وإن لم نقم بذلك، فهنا خطؤنا نحن؛ فلم تكن هذه العوامل حقيقية في الماضي."

لكن، في الوقت نفسه، صحيح أيضاً أن الناس يشعرون باليأس فعلاً. أي أن جزءاً من إحباطهم يكمن في أنهم لا يرون شيئاً آخر- لا يرون حلاً، أو أية بدائل. حتى في ذروة كساد الثلاثينيات، الذي كان، موضوعياً، أسوأ منه الآن، لم ييأس الناس بالشكل الذي نراه هذه الأيام. فقد شعر معظمهم أن الأمور ستتحسن، وبوسعهم أن يفعلوا شيئاً ما، أن ينظموا، أن يعملوا. فقد كان لديهم أوهامهم أيضاً، مثلما كانت هناك أوهام كثيرة حول روزفلت، مثلاً لكن تلك الأوهام كانت متداخلة مع شيء حقيقي ملموس. بيد أن ما يشعر به الناس هذه الأيام، هو أن الأمور تسير نحو الأسوأ، ليس هناك ما يستطيعون فعله.

لذلك، فإن ما نواجهه اليوم هو مزيد من درجة عالية من الإحباط وقليل جداً من الأمل والقدرة على تبصر البدائل. هنا هو الضمار الذي ينبغي أن يكون بوسع المؤسسين أن يقتحموه.

"ستيف بل
عن الغارديان.

محجوب
عن موقع (إيلاف) الالكتروني

TOUCH

قتل المغول ولده وأحفاده صبراً
ابن الجوزي لم يمنعه الفقه من الكتابة في العشق

رشيد الخيّون

آل الجوزي أسرة اشتهرت ببغداد في العلم والوعظ والمسؤولية بدار الخلافة، تعرض شيوخها بسبب مواقفهم من هولاكو والتصاقهم بالخلفية إلى مجزرة رهيبة يوم اجتياح بغداد (656 هـ)، ذبح فيها الآباء والأبناء في منطقة وسط بغداد تعرف اليوم بالخلاني.

كان عميد الأسرة جمال الدين عبد الرحمن المعروف بابن الجوزي (ت 597 هـ) متعدد المواهب وبكفاءة عالية، فهو المؤرخ، المفسر، الفقيه، الخطيب المفوه، الواعظ المقنع، اللغوي، ناظم الشعر والكاتب الموسوعي مع معرفة طبية سمحت له أن يصنف الكتب الآتية: "الشيب والخضاب"، "طب الأشياخ"، "الباه" و "الحقير النافع".

وهو صاحب الحظ الموفور في حفظ معظم تركاته الفكرية حتى عصرنا الحالي، برغم التدني الذي أصاب خزائن الكتب ببغداد بعد اجتياحها. وأتاح له تفرغه للبحث والكتابة أن يصنف (250) عنواناً، معظمها يتألف من عشرات المجلدات، فـ "كتاب المعين" في التفسير وحده بلغ أكثر من ثمانين مجلداً بخط يده، ومصنفات أخرى بلغت الثلاثة والعشرين مجلداً (سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان).

قيل إنه احتفظ ببقايا أقلامه، التي كتب فيها مصنفاته في الحديث الشريف، "وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يغسل به بعد موته"، فكان له هذا (ابن خلكان، وفيات الأعيان). يضاف إلى ذلك خبرة حياتية طويلة استغرقت تسعة عقود من القرن السادس الهجري، عاصر خلالها ستة خلفاء: المسترشد، الراشد، المقتفي، المستنجد، المستضيء والناصر لدين الله وكانت فترة كر وفر بين الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة.

من أطرف مصنفاته: "تلبس أبليس" ذكر فيه حيل إبليس ومراوغاته، وتوريطه لطبقات الناس، من المسلمين وغيرهم، و"ذم الهوى" قاده إلى تصنيفه مثول شاب بين يديه يطلب الدواء والخلاص من محنة العشق، وجمع في كتاب "صفة الصفوة" خلاصة وفيات كتابه "المنتظم في تاريخ الأمم والملوك"، مع سير شخصيات غريبة السلوك من العامة: نساك، حرفيين، مجانين وعقلاء المجانين، كما أورد فيه قصصاً لمجهولي الاسم، وذكرهم تحت عنوان "عابد آخر" أو "عابدة أخرى"، وعشرات النساء، مثلهن مثل الزاهدة رابعة العدوية، وذكر تحت عنوان "المصطفيات العابدات البغداديات" اللواتي همن في عشق الذات الإلهية، بينهم أخوات المتصوف بشر بن حارث الحافي: مضغة، مخة وزبدة، متحدثاً عن صلتهن بالإمام أحمد بن حنبل. كان للأخت الكبرى تأثير على حياة الحافي، فهو القائل: "تعلمت الورع من أختي". كما قال يوم وفاتها: "إن العبد إذا قصر في خدمة ربه سلبه أنسه" (صفة الصفوة).

استمع لمحاضرات ابن الجوزي عشرات الآلاف، كان في مقدمتهم الخليفة الناصر لدين الله ووالدته، يستمعان له عادة من مقصورة خاصة بدار الخلافة، حيث يعقد مجلسه الأكبر صباح كل خميس. شهد الرحالة ابن جبير عام 580 هجرية مجلسيه، يومي السبت والخميس، وعلى إثر ذلك كناه بأبي الفضل.

قيل في شدته على نفسه أنه لم "يخرج من بيته إلا الى الجامع". وهذا التعوّد يشير الى جدية قاسية وصبر على الوحدة، فحسب سبطه في "مرآة الزمان" أنه "ما مازح أحداً ولا لعب مع صبي". لكن ذلك لم يمنعه من مراعاة "حفظ صحته، وتلطيف مزاجه، وما يفيد عقله قوة، وذهنه وحده، جل غذائه الفراريج والمزاورد، ويعتاض بالفاكهة عن الأشربة والمعجونات، ولباسه أفضل لباس، الأبيض الناعم الطيب، وله ذهن وقاد، وجواب حاضر، ومجون مداعبة حلوة، ولا ينفك من جاريه حسناء" (الذهبي، سير أعلام النبلاء).

من أخبار مأساة ابنة الجوزي، بعد اجتياح بغداد السنة 656 هـ، قتل ولده محيي الدين يوسف، يذكره السبط بخالي، وكان محتسب بغداد، ووالي ديوان الجواليّ (ديوان شؤون أهل الذمة)، واستاذ دار الخلافة، وسفيرها، كما قتل صبراً أحفاده: شرف الدين عبد الله بين يوسف، المحتسب والاستاذ في المدرسة البشيرية، وسفير المستعصم الى هولاكو وهو بخرسان، ولنقة الخليفة المستعصم به سمح له بحمل ختم الخلافة في سفاراته الدبلوماسية، قتل بأسدآباد بعد عودة هولاكو من بغداد. وقتل المحتسب جمال الدين عبد الرحمن بن يوسف، الذي أخذ كنية واسم جده، وتاج الدين عبد الكريم بن يوسف. قتل آل الجوزي جميعاً وسبعين عالماً وفقيهاً آخر سوية مع العائلة العباسية، كانت ساحة الإعدام مقبرة الشيخ الخلال، يعرف المكان اليوم بالخلاني وسط بغداد (الحوادث الجامعة، بغداد 1351 هـ، ص 328).

كان أولاد وأحفاد ابن الجوزي شيوخاً في المذهب الحنبلي، ما عدا ولده بدر الدين أبا القاسم علي، الذي تولى قبل الاجتياح بستة وعشرين سنة، وذكر السبط أنه خالف والده، فمات ولم يشهد موته، وقبلها استغل نفيه الى واسط من قبل الناصر لدين الله، فسطا على كتبه ليلاً وباعها برخص "ولا ثمن المداد"، واصبح ضده في محنته (مرآة الزمان). وقال الذهبي في ولد ابن الجوزي العاق: "كان ينال من أبيه، وربما غلّ من كتبه.. ولزم البطالة والنذالة مدة، ثم لزم النسخ" (سير أعلام النبلاء).

بعد عودته، السنة 595 هـ، من منفاه بواسط لم يعش ابن الجوزي غير سنتين، قضاها في الوعظ والعبادة. قال السبط: "جلس جدي يوم السبت سابع شهر رمضان، تحت تربة الخليفة، المجاورة لمعروف الكرخي، وكنت حاضراً.. فنزل من على المنبر فمرض خمسة أيام، وتوفي ليلة الجمعة بعد العشاء والمغرب في هذه السنة في داره". وفي اليوم الثاني توفيت زوجته أم يوسف، فعدّ ذلك من كراماته.

مات دون أن تعرف ابنته رابعة ما قاله وهو يحتضر: "أيش أعمل بالطواويس؟ حبستم لي طواويس". كانت وفاته يوم عطلة عفوية ببغداد، ومن زحمة المشيعين لم يتمكن الأعيان من الصلاة عليه، فاتفق أن يصلي عليه ابنه، الذي باع كتبه ووقف ضده، فكان قريباً من الجنازة، ثم صلى عليه الاعيان بجامع المنصور. وقال الناصر العلوي الموسوي "من مشهد موسى بن جعفر عليه السلام راثياً:

الدهرُ عن طمع يغرّ ويخدع
وزخارف الدنيا الدنية تطمعُ
قد كنت كهفاً للشريعة والهدى
حبراً بأنوار الهداية تلمعُ
خذ يابن حنبل سيفك المضي إليك
ما زال عنك إذا يذب ويدفعُ

ولعلها غريبة من غرائب المذهبية بالعراق، في تلك الحقبة، أن تكون عداوة بين ابن الجوزي وبين الشيخ عبد القادر الكيلاني وهما من كبار شيوخ المذهب الحنبلي في زمانهما، وأن يمتنع شيعي بواسط من إيذاء شيخ حنبلي، ثم يرثيه موسوي جعفري خير رثاء. لم يبق لابن الجوزي قبر ببغداد، فقد خربته الفيضانات المتكررة مع تربة ابن حنبل.

لم يمنع الفقه والتفسير وصرامة حياة ابن الجوزي، وهو إمام الحنابلة في زمانه ومعتمد الخلافة في الوعظ والتدريس، وتخصيص وقت للتصنيف في العشق وملح ونوادر المجانين والمتماجنين، ولعله خلق لنفسه عذراً للوقاية من نقد النقلاء، فقال معتذراً عن تصنيف "ذم الهوى" لأجل صبابة ذلك الشاب: أعلم أني قد نزلت لأجلك في هذا الكتاب، عن بضاع الوقار الى حضيض الترخص في أوراد، أجتذبتُ لسلامتك، واجتلابا لعافيتك، وقد مددت فيه النفس بعض المد، لأن مثلك مفتقر الى ما يلهيه من الأسمار عن الفكر، فيما هو بصدد الأخطار، فليكن هذا الكتاب سميرك".